وكذلك سألتها الملائكة ، كما جاء فى قوله سبحانه على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُم .. ﴿٨﴾ ﴾ [غافر]

فالجنة - إذن - مسئولة من أصحاب الشأن ، ومسئولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا[1] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان] الحشر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقومَ الساعة فى مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن فى جيل واحد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغى أن ننظر فى كل مَنَ له أمر نطيعه : أهو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبلِّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُباح أم يتعارض مع نصٍّ شرعى ؟ فإنْ كان مباحاً فلا بأسَ فى إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم والبيهقى من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظى فى قوله ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك فى قولهم ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُم .. ﴿٨﴾ ﴾ [غافر] قال سعيد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فانجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٤١) .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه فى الشياطين : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لـمَنْ يملك أمراً أو سلطة زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزير الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال فى مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه فى العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل فى النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذى نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق - تبارك وتعالى - أن لكل شىء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

﴿ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممَّن فقه التسبيح : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي(١) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] فتبسَّم سليمان - عليه السلام - لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفى هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قَوْل مخالف لنصِّ القرآن الذى قال : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقْهك له إلا إذا عرَّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهى لغة الإشارات التى يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق - سبحانه وتعالى - يسأل المُعبودين : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى - عليه السلام - على مثل هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

عبادتهم بحقٍّ لكان المعبـودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليـه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ .. ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿عِبَادِى .. ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عـباد) و (عـبيـد) ، وعبـد يعنى أنه خاضع لأمـر السيـد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشيـاء لا يخرجون فـيها عن مـراد الله تعالى كمـيلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين ألِفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفـة وإلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعلـيك أنْ تتمرد أيضـاً عند المرض وتقـول : لن أمرض وتتـمرَّد على الموت فلا تموت ، لكن هيـهات ، فهذه مسائل ، الكل فيهـا عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وهناك أمور أخـرى جعلها الله بالاختـيار . فالذين سـبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلْهِـموا التوفيق يتنازلون عن اخـتيارهم لاخـتـيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله فى كل الأمـور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعـباد ـ إذن ـ يشتركـون مع العبيـد فى القهريات ، ويتمـيزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمـراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختـياره عَزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمّاهم عباداً ، كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

والاستفهام فى قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤهَّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أأضللتم عبادى ؛ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملَكَة اللغوية لفَهْم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول : أبنيتَ البيت الذى أخبرتنى أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أبْنه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام فى الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان فى الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما فى الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(١) المشى هوناً : بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد فيما نقله عنهما ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : هون] .

كلمة (سبحان) أى : تنزيهاً لله تعالى فى ذاته عن مشابهة الذوات ، وتنزيهاً لله تعالى فى صفاته وأفعاله عن مشابهة الصفات والأفعال ، فللّه سَمْع ولك سمع ، ولله وجود ولك وجود ، ولله حياة ولك حياة ، لكن أحياتك كحياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً ، الله غنى وأنت قد تكون غنياً ، فهل غنَاك كغنَى الله ؟ ولله تعالى فعْل ولك فعل ، فهل فعْلك كفعْل الله ؟

إذن : هناك فَرْق بين الصفات الذاتية والصفات الموهوبة التى يقبضها واهبها إنْ شاء .

وقد تُقال سبحان الله ويُقصَد بها التعجب ، فحين تسمع كلاماً عجيباً تقول : سبحان الله يعنى : أنا أنزه أن يكون هذا الكلام حدث .

لذلك يقولون هنا : ﴿ **سُبْحَانَكَ** .. (١٨) ﴾ [الفرقان] يعنى : عجيبة أننا نضل ، كيف ونحن نعبدك نجعل الآخرين يعبدوننا ، والمعنى : أن هذا لا يصح منَّا ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبادتك ، وليس من المعقول أننا ندعوهم إلى عبادتك ونتحوّل نحن لكى يعبدونا : ﴿ **سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ** .. (١٨) ﴾ [الفرقان]

فأنت وليُّنا الذى نتقرَّب إليه ، وقد بعثْتنا لمهمة من المهمات ، ولابُدَّ أن صواب اختيارك لنا يمنعنا أن نفعل هذا ، وإلا ما كُنا أمناء على هذه المهمة . فسبحانك : تنزيهاً لك أن تختار مَنْ ليس جديراً بالمهمة ، فيأخذ الأمر منك لنفسه .

ومعنى : ﴿ **مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا** .. (١٨) ﴾ [الفرقان] نفى الانبغاء ، نقول : ما ينبغى لفلان أن يفعل كذا ، كما قال تعالى فى حق رسوله ﷺ : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** .. (٦٩) ﴾ [يس] والشعر ملَكة وموهبة بيان أدائية ، وكان العرب يتفاضلون بهذه الموهبة ، وإنْ

نبغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توفرت لرسول الله هذه الملَكة .

ولو كان ﷺ شاعراً لكان شاعراً مُبْدعاً ، لكنه ﷺ ما ينبغي له ذلك ؛ لأن الشعر مبنيٌّ على التخيُّل ؛ لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتي به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مُرْهَف ، ولو قُدِّر له أنْ يكون شاعراً لكان عظيماً .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ [الشعراء]

وقالوا عن الشعر : أعْذبه أكذبُه ، لذلك لم يدخل رسول الله طوال حياته هذا المجال .

إذن : فقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] ردٌّ على ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] في قوله : ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] فلما متَّعتهم يا ربِّ أترفهم النعيم ، وشغلتْهم النعمة عن المنعم ، فانحرفوا عن الجادَّة .

والآية تنبه المؤمن ألاّ يأسَى على نعيم فاته ، فربما فتنك هذا النعيم وصرفك عن المنعم عزَّ وجل ، فمن الخير ـ إذن ـ أنْ يمنعه الله عنك ؛ لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

وقوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] أي : نسُوا المُنْعِم ، وحَقُّ النعمة ألاَّ تُنسى المنعم ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن

الصحيح إنْ كان فى نعمة العافية من المنعم سبحانه ، فالمريض الذى حُرِم منها ليس فى نعمة المنعم ، إنما فى صحبته ومعيته .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يغضب إذا دُعِى له بالشفاء ، ويقول لعائده : لا تقطع عليَّ أُنْسى بربى .

وجاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى ، قال : وكيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده »(١)

إذن : حينما يعلم المريض أنه فى معية الله يستحى أن يجزع ومعنى ﴿ قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] البُور : الهلاك ، ومنه أرض بُور ، وهى التى لا تُنبت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾

بعد أن سألهم الحق - تبارك وتعالى - وهو أعلم بهم : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] وأجابوا : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] وقد هزَّهم هذا السؤال هزَّة عنيفة أراد سبحانه أنْ يُبرئهم فقال ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ .. (١٩) ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعرف أنكم قلتم الحق ، لكنهم كذَّبوكم بما تقولون ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا .. (١٩) ﴾ [الفرقان]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة - من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالتفت إليهم . والصرف : أن تدفع بذاتك عن ذاتك الشر إنْ تعرّض به أحد لك ، والنصر : إذا لم تستطع أنت أنْ تدفع عن نفسك فيأتى مَنْ يدفع عنك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)﴾ [الفرقان] وقد يسأل سائل : لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا : فى الواقع ليس هذا العنف نَهْراً لأولياء الله ، إنما زجر ولَفْتُ نظر للآخرين ، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه والخارجين على منهجه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بُدَّ أن يقولوا : مع أن الله اصطفاهم وقرّبهم لم يمنعه ذلك أنْ يُوجِّههم إلى الحق وينهرهم .

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦)﴾ [الحاقة] فالحق - تبارك وتعالى - يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

والظلم : أخْذُ حقِّ الغير ، وما دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعنى أن الله يريد أنْ يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ؛ لأن أمور الحياة لا تستقيم إنْ أخذ الإنسان ثمرةَ غيره ، وتعوَّد أن يعيش على دماء الآخرين وعَرقهم ؛ لذلك نرى فى المجتمع بعض المجرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عَرق الآخرين وهم لا يعرقون .

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وحين يُؤخَذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهَد فى العمل وبذْل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسِّر للناس مصالحهم ، ويُسهِم بحركته فى حركة المجتمع .

وسبق أن قلنا : إن الفرْق بين المؤمن وغيره فى العمل أن الكافر يعمل لنفسه ، أمّا المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويجهد ليساعد الآخرين ؛ لذلك عليك أن تعمل على قَدْر طاقتك لا على قَدْر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيته بطاقتك ، ثم يكون الباقى عندك لمن لا يقدر على العمل وليس لديه طاقة .

والمعركة التى تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرسل ، اللهُ تعالى يفصل فيها ، يقول : لا يستطيع أحد من خَلْقى أن يظلمنى ، لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا .. (٥٧) ﴾ [البقرة] أى : لا يقدر أحد على ذلك ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة] ، فظُلْمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يغَارُ على عبده أن يظلم نفسه ؛ لأن للإنسان ملكات متعددة : ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأنِّى الآجل . فالتلميذ المجتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحبٌّ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فَرْق بين حُبٍّ واعٍ ، وحُبٍّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال فى نهاية الأمر أعلى المراتب ، والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه صُعْلوكاً فى المجتمع ، فمتعة الأول أبقى وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية .

هذه قاعـدة عامة تُقال فى عـمل الدنيا ، وتُقال فى عـمل الآخرة ، فالحق ـ تبـارك وتعالى ـ خلق الإنسـان ويحب منه ألاَّ تظلم ملكَة فى النفس ملكةً أخـرى ، وألا تظلم مـلكة العجـلة ملكة التـأنِّى ؛ لأن ملكة العجلة تأخذ خيـراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التـأنى فتنال الخير الآجل الباقى غير المنتهى .

إذن : فالله تعالى يريد لصنعتـه ، سواء المؤمن أو الكافر ألاَّ يظلم نفسـه ؛ لأن الله كرَّمـه وخلق الكون كله لخدمـته وسخَّـره من أجله ؛ لذلك يقول له : إنك لا تـستطيع أن تظلمنى ولا تظلم المـؤمنين ، إنما تظلم نفسك ، فربٌّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه فهو نِعْم الربّ .

لذلك جـاء فى الحـديث القـدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُـحبٌّ ـ بدليل أننى أعاقبك إذا ظلمتَ نفسك ـ فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً »[1] .

وحين يُضـخِّم الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ العـقوبة : ﴿ **وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا** (١٩) ﴾ [الفرقان] إنما ليُنفِّر عبـاده منها ، ويبتعد بهم عن أسبابها ، فلا تقع .

وكثيراً ما يعتـرض أعداء الإسلام على قوله تعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..** (٢٥٦) ﴾ [البقرة] يقولون : فلماذا تقتلون مَنْ يرتدّ عن الإسلام ؟ وهؤلاء لا يَدْرُون أن هذا الحكم نضـعه عـقبـةً فى طريق كل مَنْ يريد الإيمان ، وتنـبيه له حـتى يفكر جيـداً فيمـا هو مُقـبل عليه إن اخـتار الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رضاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم يحتاطُ للأمر فيدخل عليه بمَحْض اختياره وتعقّله .

فالإسلام لا يريد كثرة مُتسرِّعة ، إنما يريد تروياً وتعقّلاً وتدبراً ،

---

(١) أورده الإمـام أبو حامـد الغـزالى فى « إحيـاء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قـال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقّك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها فى جَوْدتها ، كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته ويُظهر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما خُتمتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل : تفكَّرون ، تعقلون ، تذكَّرون . وهذا دليل على أنك لو تعقلتَ ، لو تدبرتَ ، لو تذكرتَ لاهتديت إلى ما جاء به القرآن .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفرقان] كان الذى يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يُعاقب لنفسه حيث أُخذ منه شىء ، لكن الحق سبحانه ما أُخذ منه شىء ، إنما هو سبحانه بصفات الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

سبق أن تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] وهذه صفة كل الرسل ، وليس محمد بدْعاً فى ذلك ، وإذا كان أكْل الطعام يقدح فى كونه ﷺ رسولاً ، وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فنقول : بالله إذا كان أكْل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل

الطعام أنه إله ؟ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولاً ؟

وقد جعل الحق - تبارك وتعالى - الرسل يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؛ لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأُسْوة فى كل شىء للخَلْق ، ولذلك كان رسول الله على أقلِّ حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أَكْل وشُرْب ولباس ، ذلك ليكون أُسْوة للناس ، وكذلك نجده ﷺ حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً فى الزكاة التى يأخذها أمثالهم من الفقراء .

ويقول ﷺ : « إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] .

ومَنْ كان عليه دَيْن من المسلمين تحمَّله عنه رسول الله ، وهذا كله إنْ دلَّ فإنما يدل على أنه ﷺ واثق من جزاء أُخْراه ، فلا يُحبّ أن يناله منه شىء فى الدنيا .

لذلك قُلْنا : لو نظرتَ فى مبادىء الحق ومبادىء الباطل أمامك فى الدنيا لوجدتَ أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمثلاً لكى تكون شيوعياً لا بُدَّ أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مُقدَّماً : تتعب وتُظلم وتُعذَّب وتجوع وتتشرد ، وتخرج من أهلك ومن مالك ، ثم تنتظر الجزاء فى الآخرة . وبهذا المقياس تستطيع أنْ تُفرِّق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] أى : يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبُّرهم على مثل هذه الأعمال ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٦٣) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملى ونفقة نسائى صدقة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٢) كتاب المغازى من حديث عمر بن الخطاب ، وكذا مسلم فى صحيحه - كتاب الجهاد .

يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه يقول ﷺ : « صاحب الشيء أحقُّ بحمله »(١) .

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] فأيّ بعض فتنة لأيّ بعض ؟ كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أيُّ بعض مرفوع ، وأيّ بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ في مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة : أن هذا غنيٌّ وهذا فقير ، لكنهم لو أخذوا في المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن في كل إنسان موهبةً خَصَّه الله بها ، فكلٌّ منّا عنده مَيْزَةٌ ليست عند أخيه ؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق ؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندي ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا في الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن : تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل ، والتفضُّل لا يُلْزِم أحداً بعمل ، فقد تتعطل المصالح . أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذي تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

ألاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون في الصباح يبحثون عن

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٢٢) من حديث أبي هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصري وهو ضعيف » . قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٥) : « ذكره القاضي عياض في الشفاء بدون عَزْو وهو ضعيف ، بل بالغ ابن الجوزي فعدَّه في الموضوعات » وخطّأه الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) .

عمل ، ويغضب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل في يومه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

فالعامل الذي يعمل في المجاري مثلاً ويتحمَّل أذاها هو في قدرته على نفسه ورضاه بقدَر الله فيه أفضل منِّي أنا في هذه المسألة ، لأنني لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر ، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفضّل ما أقدم عليها أحد ، إذن : التسخيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمة .

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التي تؤذي العامل يعدُّها البعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأيُّ عمل يُصلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] كل بعض منا فتنة للآخر ، فالغنيُّ فتنةٌ للفقير ، والفقير فتنة للغني .. إلخ فحين يتعالى الغني على الفقير ويستذلّه فالفقير هنا فتنة للغني ، وحين يحقد الفقير على الغني ويحسده ، فالغنيّ هنا فتنة للفقير ، وهكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسل فتنة لمن كذّبوهم ، والكفار فتنة للرسل .

والناس يفرون من الفتنة في ذاتها ، وهذا لا يصح ؛ لأن الفتنة تعني الاختبار ، فالذي ينبغي أن نفر منه نتيجة الفتنة ، لا الفتنة ذاتها ، فالامتحان فتنة للطلاب ، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة في حقِّه شرٌّ . إذن : الفتنة في ذاتها غير مذمومة .

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر ، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن ، وإنْ وُجد ما هو أنفس منه ، لماذا ؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ، وهو كذلك سهل السَّبْك ؛ لذلك

يقولون : المعدن النفيس كالأخيار بَطيءٌ كَسْره ، سريع جَبْره . فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلاً .

إذن : الفتنة اختبار ، الماهر مَنْ يفوز فيه ، فإنْ كان غنياً كان شاكراً مُؤدِّياً لحقِّ الغنى مُتواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذى احترف البلطجة وأكْل أموال الناس بالباطل .

ولما كانت الفتنة تقتضى صَبْراً من المفتون ، قال سبحانه : ﴿ أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهل تصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر] يعنى : مُطلَق الإنسان فى خُسْر لا ينجيه منه إلاّ أنْ يتصف بهذه الصفات : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

وتُختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم فى الفتنة مُبْصَرة لنا ، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾